الطب والتدجيل فيه

خير ما يقال في هذا الباب مقالة صغيرة كتبتها مجلة « كونكويست » العلمية الانكليزية قابلت فيها بين المساعي الصحيحة التي تبذل في سبيل الطب ونفع بني الانسان والمساعي الكاذبة التي انما ترمي الى الربح الشخصي بطريق التدجيل . فمن القبيل الاول ما تبرع به بعض كبار الاغنياء من المال الوفير حديثاً لعلاج السرطان . وقالت عن الثاني :

« وبينا نرى رجالاً كالسر وليم فينو الذي تبرع بعشرة آلاف جنيه في سبيل علاج السرطان يبذلون كلّ جهد لتخفيف بلايا الناس نرى كثيرين من الدجالين لا يزالون يعيشون في نعمة على جيوب الجماهير التي تصدّق دعاويهم . وان المرء ليرتاع من مجرد التفكير في الاموال الهائلة التي تنفق كل سنة على مستحضرات طبية اكثرها لا فائدة منهُ البتة وكثير منها عظيم الضرر . ولا يشفع في هذه المستحضرات ويمنع ضررها كونها تباع في الصيدليات

ولسوء الحظ تسمع كثيرين يقولون ان هذه المستحضرات لا يمكن ان تكون ضارة والاّ ما سمح للصيدليات ببيعها . ويكفي لبيان خطإ هذا القول ما جرى في احدى محاكمنا . فان سيدة رفعت قضية على اصحاب صبغ للشعر يكثرون من من الاعلان عنهُ فحكم لها بمئتي جنيه غرامة . وقال رئيس المحكمة عند تلخيص القضية ان الصبغ مضرٌّ حيث يكون الجلد متهيجاً من بثور او طفح عليهِ او يكون كثير الاحساس . صحيح ان شركة الصبغ انذرت الجمهور من هذا ولكن انذارها اذا كفى في الحالة الاولى فلا يكفي في الحالة الثانية

ولا غنى عن القول هنا ان في الصيدليات كثيراً من المستحضرات النافعة في بعض الاحوال ولكن الجمهور لا يستطيع ان يفرق بينها ويميز بين النافع والضار وما لا فائدة منهُ البتة غير خسارة المال عليهِ . فاميركا ادقّ منا في هذه المسئلة » انتهى

ونحن نقول ان انكلترا ادق منا بكثير في هذا الامر فانك حيثما سرت في شوارع هذه العاصمة تجد الغلمان مندسين بين الجماهير وفي ايديهم اعلانات ومنشورات يوزعونها عن ادوية تحيي الاموات وتجدد شباب الشيوخ وتجعل

تعده ليكون ولي عهدك كما يعتقد الجميع . والمسائل الثلاث مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً متيناً فمن غير دستور بسيط قوي الدعائم يستحيل ان تضمن بقاء اصلاحاتك التي قمت بها . ومن غير الاستقلال لا يمكن ان يولد الدستور . ومن غير ولي عهد تك يخلفك على العرش ويحترم الدستور ويحرص على التمسك به ايّاً كان نوعه يستهدف الدستور وكل ما قمت به من الاعمال للزوال

﴿ تربية ولي العهد ﴾ لاجل ان يتهيأ حفيدكم للحكم الدستوري ويصبح شغوفاً على الدوام بالدستور عاملاً على استكماله يجب ان يتربى التربية التي تؤهله لذلك . واني لهذا السبب الح بضرورة وجوده في لندره سنتين او ثلاثاً يكون فيها تحت اشرافي مباشرة او اشراف صديق اثق به تمام الثقة . وهنا يمكنني تعليمه التعليم الموافق وسيخبركم جالواى مهندسكم الامين عني وعن كفاءتي لتولي هذه المهمة العالية

ومتى شيدتم استقلال بلادكم واقمتم الدستور فيها فقد يروق لكم اذ ذاك ان تزوروا هذه البلاد لتعودوا مع حفيدكم وعند ذلك تزورون مليكنا كما زاره قيصر الروسيا حديثاً وكما زاره آخرون من ذوي الرؤوس المتوجة في ازمنة مختلفة

وهذه هي الطرق التي اتبعها مع عباس حتى ينشأ على محبتي

اولاً : الطريقة الايجابية وذلك بان اضع حوله كل ما ينقل اليه السرور من غير الم فلا يلبث ان يعتبر وجودي مصدر سروره واستمتاعه ويصبح شخصي في نظره رمزاً لكل شيء سارّ وانيس

ثانياً : الطريقة السلبية ولا ارى ضرورة استخدامها الاّ نادراً وبمقتضى هذه الطريقة تصبح ارادتي في نظره مصدر آلامه والعقبة الكؤود التي قد تقف في طريق استمتاعه

واذا ما طرأت ظروف تتطلب توقيع العقاب عليه فاني افضل ان اتبع الطريقة الآتية دون سواها وهي ان احرمه من الاستمتاع بشيء منتظر

اما العقابات الجثمانية فلا ارى امكان الالتجاء اليها

اما عن الكتب فاشير عليه بقراءة مقالات فرلتير وتاريخ الهند للاستاذ مل وتاريخ انجلترا لهيوم والتاريخ العام وتاريخ الثورة الفرنسية والثورة الاميركية وتاريخ الاسلام والروسيا وتاريخ الحروب الدينية

اما عن الجامعة التي يجب ان يلحق بها فاشير بجامعة لندره واما اكسفورد وكامبردج فهما معاهد التعصب والكذب والرياء والتقاليد الرثة

﴿ الاستقلال ﴾ اما عن الاستقلال فما يدعو الى استفرابي واستغراب العالم اجمع هو استمرار تبعيتك (للسلطان) الفعلية او الظاهرة ولا بد ان يكون ذلك راجعاً الى بعض اسباب خاصة ليس في طاقة الاجانب ادراكها فان مركز مصر اذا تم وصل البحرين ببعضهما سيمكنك من ان تقف حكماً بين انجلترا وفرنسا متى كنت مستقلا اما وانت تابع فلا يمكنك عقد اية معاهدة مع اية دولة اجنبية. حقاً قد يكون في وسعكم ان تعقدوا هدنة وفي استطاعة اي قائد ان يعقد هدنة ولكنهُ لا يستطيع ابرام معاهدة تبقى نافذة المفعول طويلاً. اما اذا اعلنتم استقلالكم فلن تكون هناك دولة اجنبية لا تستطيعون ان تبرموا معها في الحال المعاهدات التي توافقكم وعند ذلك سرعان ما تأخذون مكانكم بين ملوك اوربا. وليت شعري لماذا لا تكونون مثلهم . قارنوا بينكم وبينهم من حيث عدد السكان والايراد فاذا وجدتم من يمتاز عليكم فانكم ستجدون من بينهم كثيرين ممن هم اقل منكم مالاً ونفراً . فهذه المانيا فيها من الممالك المستقلة سكسونيا وورتمبورغ وهانوفر وفي اوربا الدنمرقه والبرتغال والسويد

بقي تعيين اللقب الذي يوافقكم متى اصبحتم مستقلين . ان لقب الباشا يدل على التبعية فلا يمكن اتخاذهُ. ولا شك انكم تعرفون اللقب الذي يلقب بهِ صاحب الامر في مراكش. انهُ يلقب بما يعبر عنهُ الافرنج بكلمة « امبراطور » . هذا هو اللقب الذي يجب ان تتخذوهُ وهو لقب يعد اعظم من لقب ملك

واما بشأن علاقاتكم مع السلطان فاما ان تكونوا على وفاق معهُ او على خلاف . فاذا كنتم على خلاف فليس هناك مصاعب تعترض سبيلكم اذا اعلنتم الاستقلال ما دمتم واثقين من شعبكم ومن ضباط جيوشكم على الاخص

ولكن اذا فرضنا وجود الوفاق بينكم وانكم راغبون في استمرار هذه المودة فيلوح لي انكم تستطيعون متى كنتم مستقلين وعلى اتفاق مع السلطان ان تقدموا لهُ خدمات اجل وانفع مما تقدمون وانتم في حالة التبعية على انكم تعلمون حاجة السلطان للمال فارسلوا اليهِ القدر الذي تريدون ارسالهُ وانتم في حالة الاستقلال كما لو كنتم في حالة التبعية

وقد تحصلون بواسطة المعاهدات على موافقة الدول المعادية للسلطان ما دام الامر الذي يهم الدول هو استطاعتكم ان تنفذوا في الخفاء ضد رغبة الدول ما يمكنكم تنفيذهُ بموافقتهم. اما اذا لم يصغ السلطان الى مطلبكم وترفع عن اجابتكم فما عليكم الاَّ ان تصارحوهُ القول بعبارات لائقة كما هو شأنكم. قولوا لهُ « اذا اعترفتم باستقلالي منحتكم مقدار كذا من المال في ميعاد محدد واما اذا رفضتم فاني انضم الى الخلفاء ضدكم » (وكانت تركيا اذ ذاك تحارب روسيا وفي حالة عداء مع فرنسا وانجلترا وكان محمد علي قد فضل الانسحاب من المورة والاتفاق مع الخلفاء على اعلان حيدته) .

﴿ الدستور ﴾ اما عن الدستور فاقترح ان تكون حكومتكم ملكية في مستوى الحكومات الملكية الاوربية وضمن دائرتها الودية وان تقسم المملكة الى خمس دائرة انتخابية ينتخب عن كل دائرة عضو. ومن الاعضاء الخمسين يتكون مجلسكم او ديوانكم (واذا راعينا ان عدد سكان مصر كان في ذلك الوقت يتراوح بين ثلاثة ملايين ومليونين ونصف كانت نسبة التمثيل واحداً لكل ٥٠٠٠٠ او ٦٠٠٠٠ من السكان) ويكون حق الانتخاب لكل فرد اقام مدة معينة في الدائرة ويكون عارفاً بالقراءة والكتابة. ويجب ان تكون طريقة الانتخاب بالتصويت السري العام

ايها الرجل العظيم !

ان العالم لم يعرفك للآن حق المعرفة وكلما زادت معلومات الناس عنك استفاد العالم واستفاد الوطن الذي اوجدتهُ بل استفاد النوع الانساني باكمله — انتهى

بهذه الكلمات ختم بنيامين خطابهُ لمحمد علي في سنة ١٨٢٨ ولم يصل محمد علي بعد الى ذروة المجد التي رفعهُ اليها جدهُ واخلاصهُ وعزمهُ

وها قد مضى نحو قرن من الزمان على كتابة الخطاب ولا تزال المسائل التي بسطها بنيامين شغلنا الشاغل في عهد ابن حفيد محمد علي ولا يزال العالم الاجنبي يعرف عن محمد علي ويهتم بتاريخهِ اكثر من اهتمام مصر وحكومتها بتاريخ ذلك البطل المصري العالمي

محمد رفعت

مدرس التاريخ بمدرسة المعلمين الملكية